اعترافات فتى العصر

لألفريد دي موسيه

بقلم الأستاذ فليكس فارس

الجزء الخامس

الفصل الخامس

إنها لقوة مروعة هذه القوة الكامنة فى الفكر الانسانى ! فهى السلاح الذى ندافع به والمعقل الذى نلجأ إليه ؛ إنها لأفضل ماوهب الله للانسان ، فهى تابعة لنا تأتمر بأمرنا ؛ نقذف بها إلى الآفاق ولكنها إذا ما تخطت حدود ذهننا ذهبت طليقة لا تملك لها زماماً

وكنت وأنا أرجىء الرحيل من يوم إلى يوم تبارحنى قواى ويهجرنى الوسن فتنسرب منى حياتى دون أن أشعر ؛ فاذا أنا جلست إلى المائدة كرهت طعامى ، وإذا أسدل الليل ستاره وانطرحت على فراشى تراءى لى حتى فى أحلامى وجهان شاحبان هما وجها سميث وبريجيت كأنهما يرقبانني كما أرقبهما من صباحى حتى مسائى

وكنت كلما ذهبا كل مساء إلى الملاهى أرفض مرافقتهما ثم أتبعهما إلى المسرح الذى قصداه فأقعد مختفياً بين النظارة لأراقبهما . وإذا ما جلسنا نتحدث فى غرفة ادعيت أن لى ما يشغلنى فى غرفة أخرى ، فأختفى ساعة أتجسس وأنصت إلى حديثهما . ولكم خطر لى أن أوجد خلافاً بينى وبين سميث فأدعوه إلى المبارزة ، فكنت أدير له ظهرى وهو يوجه الخطاب إلى فأراه يتبعنى مندهشاً ويمد يده إلىّ ليصافحنى . ولكم قصدت أن أنهض من فراشى ليلا لأفتح أدراج مكتب بريجيت وأفحص أوراقها ، ولكننى قاومت هذه الفكرة حتى اضطررت مرة إلى مغادرة البيت كيلا أستضعف لها . وخطر لى يوماً أن أدخل عليهما وأنا شاهر خنجراً لأكرههما على الاقرار لى بسبب الحزن المستولى عليهما . وفى يوم آخر انقلب غضبى عليهما إلى عداء لنفسى . إننى أدوّن هذه الأحوال بمداد الأسى والخجل . ولو أن أحد الناس انتصب أمامى ليسألنى عما يدفع بى إليها لكنت ولا ريب أصاب بالعي فلا أجد كلمة أبرر بها ما أفعل

لقد كنت موجهاً كل قواى إلى التجسس والارتياب فأخلق الاضطراب والشقاء لنفسى فأقضى أيامى فى إرهاف أذنى بالتسمع ، ولياليّ فى ذرف الدموع ، مردداً قولى إننى سأموت غماً وألماً ، مشدداً إيمانى بأن هنالك ما يستلزم هذا الفناء . وهكذا كنت أحس أن الضعف يجتثّ الأمل من قلبى ، ويخيل إلىّ أننى أتجسس فى حين لم أكن أسمع فى الظلام سوى خفقان قلبى فلا انقطع عن ترديد هذه العبارات الفارغة التى يتلهى الناس بها فى كل مناسبة فأقول : إن الحياة حلم وكل شىء باطل زائل . وأتوصل أخيراً إلى سوء الظن بالله وأنا سائر على سبيل هوسى وآلامى

هذه هى الحياة التى كنت أستقطر منها لذتى وبمثل هذه المشاغل كنت أنقطع متخلياً عن الحب

بارماً نفسى نقى الهواء وصفاء السماء وسعادة الحرية

أجل إن الحرية الخالدة كانت تستهوينى بالرغم مما وصلت إليه لأنها ما انقطعت عن مراودة تفكيرى ، فكنت أشعر وأنا مستغرق فى غرائب أطوارى وجنونى بقوة تنبث فى نفسى فتطلقها من أجواء سجنها ؛ تلك فترات كنت أتمتع بسكونها عند ما تنفحنى نسمات من الهواء البليل ، أو عند ما أدع جانباً المؤلفات المشحونة بالنقد العنيف وبثورات الإلحاد التي تجتاح المجتمع لتمنيه بالعلل ، فأطالع سواها كمذكرات كونستان مثلاً . ولأوردنّ بضعة أسطر قرأتها من هذه المذكرات فأعادتنى إلى حقيقة حياتى :

« أصيب سالسدورف الجراح الساكسونى التابع للبرنس كريستيان بشظايا قذيفة كسرت ساقه فى معركة واغرام ، وكان منطرحاً على التراب وهو على آخر رمق ، فإذا به يرى « أميديه دكربورغ » مرافق أحد القواد يسقط مصاباً بقنبلة صدمت صدره فتدفق الدم من فمه . وتيقن أن هذا المصاب سيموت مفلوجاً إذا لم يبادر أحد لإسعافه ، فزحف مستجمعاً بقية قواه حتى وصل إلى المرافق الصريع وعالجه بفصد أنقذ حياته . وحمل الجراح بعد المعركة إلى فينا حيث قطعت رجله فلم يعش إلا أربعة أيام »

قرأت هذه السطور فسقط الكتاب من يدى وطفقت أبكي بدموع أعادت إلىّ السكينة يوماً كاملا إذ تحولت عن كل هم وانقطعت إلى ذكر سالسدورف فما خطر لى أن أصوّب ريبتى إلى أحد

وما كانت تفيدني مثل هذه اللحظات سوى التفكير فى زمن ساد الصلاح فيه عواطفى وحياتى فأبسط ذراعى نحو السماء أستعطفها فى شقائى ، وأسائل نفسى عن هدفها في هذه الحياة مديراً لحاظى فى الآفاق متوقعاً أن تقذف إلىّ بقنبلة تضع حداً لأوهامى . غير أن هذه الحال لم تكن تنجلى أمامى إلا كلمات بروق خاطفة فى دياجير أيامي

ما أشبه الفكر عند ما يدور على نفسه بدرويش يطلب الاستغراق فى نشوة دورانه فلا يلبث حتى ينهكه جهده فيقف مرتاعاً وما اكتشف فى محاولاته شيئاً ، إذ لا يقوده الانصباب على أغواره إلا إلى المهاوى حيث ينقطع الهواء كما ينقطع فى الآبار السحيقة وعلى الذرى المحتكة بالسحاب ، فقد وضع الله حداً لكل مجال تحتم على الإنسان ألا يخترقه . وعند هـذا الحد المنيع يتطرق الصقيع إلى القلب وتسوده غفلة يندفع فيها إلى اجتياز نطاقه طلباً للحياة حاسباً أنه ينشق الهواء وليس ما حوله إلا أثير أوهام تحتشد فيه جهوده المضيعة أشباحاً تدور به لتقضى عليه

ووهنت قواى فى موقفي حتى غدوت لا أطيق الحياة فى وساوسى وشكوكى فصممت على القيام بعمل أتوصل به إلى معرفة الحقيقة

استأجرت عربة وأمرت أن تكون معـدة للسفر عند الساعة العاشرة ليلاً وأوصيت الخدم ألاّ يدعوا مدام بيارسون تشعر بالأمر

وجاء سميث وقت العشاء فجلسنا إلى المائدة وأنا أتكلف المرح وأقول لبريجيت : إننى لا أعارض فى العـدول عن السفر إذا كانت ترغب عنه ، لأننى أستحسن باريس ولا أجد بين المدن مدينة تفضلها في ملاهيها ومسراتها . وأعربت أخيراً عن ميلى إلى البقاء ما دام ليس هنالك ما يضطرنا إلى الرحيل

وكنت أتوقع أن تعلن بريجيت إصرارها على السفر إلى جنيف ، فما كذب ظنى إذ أبدت رغبتها

فى ذلك ولكن بلهجة لا تنم عن عزم أكيد . فانتهزت الفرصة للنزول عند إرادتها وغيرت مجرى الحديث قاطعاً خط الرجعة على ما اعتبرته أمراً مقضياً. ثم عدت أقول : وهل هناك ما يمنع مرافقة سميث لنا فى رحلتنا فإن بامكانه أن يحصل على إجازة ، وفضلاً عن ذلك فإن مهارته فى فنه وإن أنكرها هو تضمن له العيش حراً فى أى بلد نزل فيه . إن عربتنا تتسع له ؛ وليس من الخير لشاب فى سنه أن يمضى أيامه سجيناً . ووجهت الخطاب إلى بريجيت أطلب منها أن تبذل نفوذها لإقناع سميث بأن يضحى من أجلنا ستة أسابيع من وقته على أن يعود بعد هذه السياحة إلى مكتبه

وكانت تعلم أن هذه الدعوة لم تكن إلا نوعاً من المزاح ولكنها لم تتردد فى ضم صوتها إلى صوتي . غير أن سميث تعلل بإمكان فقد وظيفته إذا هو تغيب عنها واعتذر إلينا متأسفاً

واستحضرت زجاجة من خير الشراب واستمررنا فى الحديث حتى انتشينا . وخرجت بعد العشاء لأتأكد من أن أوامرى قد نفذت ، ثم عدت مسروراً إذ رأيت كل شيء على ما يرام . وأبديت رغبتى فى عدم الذهاب إلى الملاهى وطلبت أن يعزف سميث لنا على قيثارته لنمضى السهرة سوية . فأخذ يوقع الأنغام وذهبت بريجيت تطلق صوتها بالإنشاد ، وجلست أنا أضرب على البيانو ، وقمنا بعد ذلك نحتسى « البونش » ونلعب بالورق وأنا معلق أنظارى على ساعة ، حتى إذا وصلت إلى العاشرة سادني ارتعاش تغلبت عليه ، وقرقعت العجلات أمام الباب فقبضت على يد بريجيت وسألتها عما إذا كانت مستعدة للرحيل . فنظرت إلىّ مستغربة وقد حسبتنى مازحاً فقلت لها : إن ما بدالى من إصرارها أثناء العشاء دفعنى إلى التعجيل ، وما خرجت بعد الطعام إلا لأطلب العربة . ودخل خادم المنزل يشعرنا بأن الحوائج قد رتبت وربطت وأن السائق فى انتظارنا

وقالت : أصحيح أنك تريد الرحيل في هذا الليل ؟

فقلت : ولم لا ما دمنا متفقين على مغادرة هذه المدينة ؟

— وهل نسافر الآن فى هذه الساعة ؟

— أجل سنسافر . ألسنا على أهبة منذ شهر ؟ وما دمنا قررنا الأمر فالتعجيل خير من التسويف . أفما رأيت كيف تم كل شيء بسهولة ؟ ومن رأيي أن يقضى الانسان فى شؤونه على هذه الطريقة فلا يدع لغده ما يستطيع أن يفعله فى يومه . إذا كان يحلو لك السفر هذا المساء ، فلماذا لا أنتهز الفرصة للتخلص من التسويف وقد ثقلت هذه الحياة علىّ ؟ إذا كنت عازمة على الرحيل فلنرحل

وساد بيننا السكوت ، فتقدمت بريجيت إلى النافذة فإذا بالعربة أمامها تؤيد ما عزمت عليه . وما كان لها أن ترى في هذا إلا تنفيذاً سريعاً لما شاءت هى ، فأصبحت تجاه أمر واقع لا تملك العدول عنه . وبعد أن تحققت أن كل شيء قد أعد سرحت نظرها فى جوانب المسكن وأخذت قبعتها ودثارها قائلة : هيا بنا . ولكنها وقفت مترددة وأخذت بيدها مصباحاً وذهبت تدور فى غرفتى وفى غرفتها فاتحة أدراجهما ثم سألتنى عن مفتاح مكتبها قائلة : إنه كان معها منذ ساعة وقد فقد . وعادت تقول : هيا بنا إننى مستعدة ، وهى لا تملك نفسها من الارتعاش وجاءت فجلست حيث كنت جالساً وأنا أحدق

فى سميث الواقف أمامى وقد ملك نفسه ، فما نمَّ عن اضطرابه شيء سوى قطرتين من العرق تدحرجتا على فوديه . وكانت بين أنامله قطعة عاج من قطع اللعب انحطمت وتساقطت كسرها على الأرض .

ومد كلتا يديه إلينا ليصافحنا قائلاً : سفر سعيد يا صاحبىّ

وعدنا إلى الصمت وأنا أتوقع أن يضيف إلى توديعه كلمة واحدة ، وقد قلت فى نفسى إذا كان هنالك سر ففى أية مناسبة غير هـذه سأوفق الى اقتناصه ؟ إن فى مثل هذه الساعة تنعكس الأسرار على الشفاه ، وهأنذا أترصد خيالها

وقالت : فى أى بلد سنقيم يا عزيزى أكتاف ؟ وأنت يا هنرى ستكتب إلينا ؛ ولن تنسى أهلى فتسعى جهدك لنيهم من أجلى

فقال بصوت طغى التأثر على هدوء نبراته : أعدك بالا أدخر جهداً فى هذا السبيل ، ولـكن الرسائل التى تلقيتها لا تدع لى أملاً كبيراً ، فإذا ما حبطت مساعىّ فلا تتهمينى بالقصور . وعلى كل لا تتوقعى ورود أخبار تسرك فى القريب العاجل . ثقى بيَّ فإنى مخلص لك

وبعد أن وجه سميث إلينا بعض كلمات من قبيل المجاملة تحول نحو الباب فسبقته إليه وخرجت لأدع له مجالاً لخلوة أخيرة . ودفعت الباب ؛ ورأى كأننى أبتعد ، ثم عدت فألصقت أذنى بفتحة المزلاج

وحدق سميث فيها قائلاً : متى أراك ؟

فقالت : لن ترانى بعد . الوداع يا هنرى

ومدت إليه يدها فرفعها إلى شفتيه وخرج ، ولو لم أندفع بسرعة إلى الوراء لـكان اصطدم بى

وعنـد ما خلوت ببريجيت وهى حاملة دثارها تنتظر إشارتى ـ وقد بدا التأثر بجلاء على ملامحها ـ شعرت بانقباض فى حشاشتى ؛ وكانت وجدت مفتاح مكتبتها إذ رأيت أدراجها مكشوفة فارتميت على المقعد قرب الموقد ، وقلت لها وأنا لا أجسر على التحديق فى عينيها :

— إصغى إلىَّ يا بريجيت . لقـد أسأت إليك كثيراً وقد حق علىَّ أن أتحمل آلامى فلا أشكو إلى أحد . لقد طرأ على حالك من التبدل ما ضعضعنى فاضطررت إلى دعوتك لجلاء أمرك ، ولـكننى أعدل اليوم عن الاستسفار وأصرح لك بأننى راض بالبقاء هنا إذا كان يصعب عليك الرحيل

فقالت : هيا بنا فلنرحل

— لك ما تشائين ، ولـكننى أقتضى الصراحة منك ، فأنا مهيأ لاقتبال أى سهم يسدد إلىَّ دون أن أسأل عن مصدره فلا أتململ ولا أشكو ، وإذا كان قضى علىَّ بأن أفقدك فما أطلب منك إلا حجب الأمل عنى كيلا أتعثر بأذياله فأموت

فحدقت فى قائلة : حدثنى عن حبك ولا تذكر أوجاعك

فقلت : أحبك أكثر من الحياة ، وما أوجاعى إلا أوهام تجاه هذا الغرام . تعالى لنذهب إلى آخر الدنيا فأحيا بك أو أموت من أجلك

وتقدمت نحوها فاذا بالاصفرار يعلو وجهها وإذا بها تتراجع إلى الوراء مرغمة وهى تكره شفتيها المتقلصتين على الابتسام ، وذهبت إلى مكتبتها قائلة : أمهلنى هنيهة من الزمن إذ علىَّ أن أحرق بعض أوراق وأبرزت رسائل أقاربها أمامى ثم مزقتها وألقت بها إلى النار ، وعادت فأخرجت أوراقاً أخرى طالعتها ووضعتها على الخوان ، وما كانت هذه الأوراق إلا

قوائم حسابات لبعض مورّدى حوائجها ، وبينها ما لم تكن دفعت ثمنه بعد ، وطفقت تتكلم وهى تدقق فى هذه الحسابات راجية عفوى عنها لاحتفاظها بالصمت طوال المدة الأخيرة ، مبدية نحوى أشد العطف ، مستسلمة لإرادتى ، فرأيت فيها مجسم الحب أو مجسم مظاهره ، وذهب مرحها المصطنع يحز فى قلبي إذ رأيت فيه ألماً يجحد نفسه فيتكلف سروراً أفجع من النواح واستسلاماً قرارته أمرّ عتاب . وقد كان خيراً لى لو أنها ظهرت جامدة ولم تلجأ إلى هذا الهياج المكذوب للتغلب على نفسها

وظهرت بريجيت لعينى كأنها ممثلة تقلد ما كانت عليه قبل خمسة عشر يوماً ، فاذا بكل حركة منها كانت تسكرني غراماً من قبل تصدم قلبي فينقبض لها ارتياعاً

وصحت بها فجأة : أى سر تضمرين يا بريجيت ؟ إذا كنت تحبيننى حقيقة فالى مَ ترمين بهذا الدور الذى تحكمين تمثيله أمامى :

— أنا أمثل ! وما الذى يدعوك إلى هذا الظن ؟

— أفما يجدر بك أن تعلمي أن روحك تلامس الموت ، وإنك تتحملين عذاب الشهداء ؟ إننى أفتح لك ذراعى فألقى رأسك إلى صدري وأطلق سراح دموعك عليه ، فلعلنى أذهب بك إذا فعلت ، أما أن أختطفك ، وأنت على ما أرى فذلك مما لا أقدم عليه

فصرخت : هيا بنا فلنذهب

فقلت : لا ! قسما بحياتى إنني لن أفعل ما دام بينى وبينك هاوية سر أو سواد نقاب . إن أشد مصاب لأهون وقعاً علىّ من هذا المرح الذى تتصنعين

فوجمت إذ رأتنى نافذاً إلى أقصى سريرتها بالرغم مما تبذل لحجبها عنى

واستطردت قائلاً : لماذا نخادع نفسينا ؟ لو لم أكن ترامیت إلى الهاوى فى نظرك لما كان وسعك أن تتظاهرى بغير حقيقتك أمامي . أفترين هذا السفر تنفيذاً لحكم مبرم قضيت به عاتياً وأتيت به جلاداً يقودك إلى الإعدام ؟ أى شىء يروعك من غضبي لتلجئى إلى مثل هذه الحيل ؟ وما هو هذا الخوف الذى يقودك إلى مثل هذه الأكاذيب ؟

— أنت مخطىء يا أكتاف . قف عند هذا الحد ولا تزد

— لماذا هذا الحذر ؟ إذا كنت قد فقدت صفة الأمين على سرك فعامليني معاملة الصديق على الأقل . وإذا امتنع علىّ أن أعرف مصدر دموعك فهل أحرم النظر إلى انسكابها من عينيك ؟ أتراجعت ثقتك عنى إلى حيث لا تعتقد باحترامي لأوجاعك ؟ وما هى الجناية التى أعاقب عليها بحرمانى معرفة هذه الأوجاع ؟ أفليس لدائك من دواء ؟

— لا ! وخير لك ولي أن تشدد النكير علىّ . إنك لتدفع بنا كلينا إلى الشقاء ، أفلا يكفيك أن نرحل عن هذه البلاد ؟

— وهل يوسعني أن أرحل وكل حركة منك تدل على نفورك من هذا السفر ؟ فأنت تقتحمينه مكرهة وبوادر الندم تسبق أقدامك عليه ، فما تخفين عنى يا ترى ؟ وما يفيد التلاعب بالألفاظ إذا كانت الفكرة أوضح من النهار ؟ وهل يجمل بى إذا لم أنحط إلى أدنى دركات الإنسانية أن أقبل عن رضى ما تجودين به مكرهة آسفة ؟ على أننى أقف حائراً فى رفضه وأنت تحطمين قواى بصمتك

— لا . إننى لا أتبعك مكرهة . أنت على خطأ

فى اعتقادك هـذا ، فأنا أحبك يا أكتاف فكف عن تعذيبى

وتساقطت هذه الـكلمات من فمها بكل عذوبة الحنان ، فرأيت نفسى منطرحاً على قدميها وقد غلبتنى نظراتها ونبرات صوتها فهتفت : أتحبيننى يا بريجيت ؛ أحق ماتقولين يا خليلتى ؟

— أجل إننى أحبك . أجل إننى ملكك فافعل بى ماتشاء . إننى سأتبعك . هيا بنا يا أكتاف فإن العربة بانتظارنا . وشدت بأناملها على يدى وهى تلق على جبينى أحرّ قبلاتها مكررة قولها : لا بدّ من أن أتبعك . إننى أريد أن أسير معك إلى آخر يوم من حياتى ...

رددت كلمة « لا بد » فى نفسى ووقفت ناظراً إلى بريجيت تقلب آخر صفحة من أوراقها فسألتها عما إذا كانت أتمت عملها ، فأجابت إيجاباً

عند ما أوصيت بالعربة لم أكن مقرراً الرحيل بل رميت إلى القيام بتجربة فإذا أنا تجاه أمر واقع وتقدمت فاتحاً الباب وأنا أرفع صوتى قائلاً : « لا بدّ » وما تعنى هذه الـكلمة ، بل أى شىء وقع هنا وأنا لا أدرى به ؟ أوضحى لى الأمر وإلا بقيت حيث أنا ؟ أفيكون حبك لى فرضاً عليك وعاطفة لا بد منها ؟

فارتمت على المقعد وهى تفرك يديها ألماً وتصرخ: ويحك ! إنك ستجهل الحب طول حياتك

— لعلك تقولين الحق ، ولـكننى أستشهد الله على أننى أعرف العذاب . لقد قلت إنه لا بد لك من حبى فلا بدّ لك أيضاً من إبداء الجواب ، وما أنا مبارح موقفى حتى ولو اضطرنى إصرارى إلى فقدك ، حتى ولو سقطت هذه الجدران علىّ قبل أن أطلع على هذا السر الذى يقضّ مضجعى منذ شهر . إننى تاركك إذا لم تتكلمى . لقد أكون مجنوناً ؛ لقد أكون مقدماً على هدم حياتى بيدى ؛ ولقد يكون من الخير لىّ أن أتجاهل ماأطلب إيضاحه ، فلا أثير بيننا أموراً قد تقتل سعادتنا وتمزق شملنا وتحول دون هذا السفر الذى حصرت أمانىّ فيه ؛ لقد يكون كل هذا ولـكننى لا أرتجع عن عزمى . تكلمى أو أتخلى عن كل شىء

— لا ... لا ... لن أتكلم

— بل سوف تتكلمين . أفتحسبين أننى أخدع بأكاذيبك ؟ أيخيل إليك أننى جاهل أمرك وأنت تتبدلين بين صبح ومساء متقلبة كتقلب الظلمة والنور ؟ وتلجأين إلى تبرير موقفك بإبرازك رسائل لاتستحق أن ألقى عليها نظرة واحدة . وهكذا تقنعين بأننى أكتفى بأول تعليل يخطر لك تقديمه ، أوجهك وجه تمثال من الجير لتضمحل وراءه أشباح عواطفك فما هو اعتقادك فىّ يا ترى ؟ إننى لا أنخدع بنفسى على قدر ما يلوح لك فحذار أن ينم لى سلوكك عما تبذلين لستره كل هذه الجهود

— وماذا تعتقد أن يكون هذا السر الذى أخفيه؟

— أإلىّ يوجه هذا السؤال ؟ وما تقصدين من هذا التحدى الصريح إذا لم يكن ما ترمين إليه إحراجى لإثارة كرامتى الجريحة حتى إذا انفجر غيظى تخلصت منى

إنك تتوقعين منى تصريحاً تقابليه بخبث الأنوثة. تريدين أن أتهمك لتردى علىّ بقولك : إن امرأة مثلك لا تتنازل للدفاع عن نفسها . إن أشـد النساء لؤماً

تعرف كيف تتشح ببرود العظمة وتذود عن نفسها بسلاح التحقير ، فالصمت أقوى ما تتمتع به المرأة . وما تعلمت هذه الحقيقة من أمس . إنك تراودين الاهانة بالسكوت ولكن إذا كان بوسعك أن تحاربي قلبي لأن قلبك خافق فيه ، فأنت أضعف من أن تهاجمي تفكيري ، فإن رأسي أقسى من الفولاذ وفيه من المعرفة مالا تعلمين

— بالك من ولد مسكين ! أفلا تريد أن نرحل ؟

— لا . إنني لن أسافر إلا بصحبة خليلتي وما أنت بخليلتي الآن . لقد جاهدت طويلاً وتعذبت كثيراً وأنا أقرض شغاف فؤادي . لقد طال ليلي وآن للصبح أن ينجلي . فهل أنت موردة جوابك أم لا تزالين مصرّة على السكوت ؟

— لن أجاوب

— ليكن ما تريدين فأنا مصرٌّ على الانتظار

وذهبت لأنطرح على مقعد في آخر الغرفة مصمماً على عدم الحركة حتى أعرف ما أريد معرفته . أما هي فأخذت تتمشى أمامي رافعة رأسها وقد انطبعت آثار التفكير على جبينها المتجهم

وبت أتبعها بأنظاري ، وكلما استغرقت في صمتها أوغلت في غضبي . وكنت أحاول إخفاء ثورتي فتوجهت إلى النافذة وصرخت بالخدم أن يؤدوا للسائق أجره معلناً عدولي عن السفر هذا المساء

فقالت بريجيت : مسكين أنت !

وأقفلت النافذة وعدت إلى مقعدي متظاهراً بأنني لم أسمع شيئاً وفي أحشائي نار تتقد تجاه هذا الصمت الجليدي وهذه القوة السلبية . ولو أنني كنت في موقف عاشق تيقن خيانة محبوبته له لما كنت شعرت بضنك أشد على روحي من هذا الضنك

وما قررت البقاء في باريس إلا وأنا مصمم على استنطاق بريجيت مهما كلفني الأمر ، فأخذت أستعرض الوسائل توصلاً لبغيتي فلا أجد ، وأتمنى لو خطرت لي وسيلة ناجعة أبذل في اتخاذها كل ما أملك

ما العمل ؟ ماذا أقول ؟ وهي واقفة أمامي هادئة تحدجني بنظرات ملؤها الأسى

وسمعت قرقعة حوافر الخيل وقد حلت من مرابط العربة ، وما لبث حتى ساد الصمت على الشارع . وقد كان بوسعي أن أقف وأصرخ لأسترجعها غير أنني جمدت مكاني كأن القضاء قد حتم بابتعادها دون معاد

تقدمت إلى الباب ودفعت مزلاجه وأنا أسمع في أذني همساً يقول لي : لقد أصبحت وحدك تجاه المخلوقة التي في يدها حياتك أو موتك

وعدت إلى التفكير في حيلة تهتك الأستار أمامي فاذا بي أتذكر قصة من قلم ديدرو عن امرأة تأكلها الغيرة على عشيقها فلجأت إلى حيلة غريبة توصلاً لجلاء ريبتها به إذ صرحت له بزوال حبها له وبأنها عازمة على هجره ؛ وكان هذا العاشق يدعى المركيز أرسيس ، على ما أذكر ، فوقع في الحبالة واعترف لخليلته بأنه هو أيضاً لم يعد يشعر بالحب لها

وكنت قرأت هذه القصة وأنا في زمن المراهقة فأعجبت بحيلة بطلتها ، وعندما عنّت لخاطري وأنا في هذا المأزق ابتسمت وقلت في نفسي : لعل بريجيت تقع في الشرك نفسه إذا أنا مددته لها فتفضي إليّ بسرها

وهكذا انتقلت من حالة الهياج والغضب إلى المراوغة والخاتلة ، وخيل لى أن اقتياد امرأة إلى الإقرار ليس من صعاب الأمور ، وقلت في نفسي : ما دامت هذه المرأة خليلتى فلن أعجز عن استنطاقها إلا إذا كنت من صعاليك الرجال

وتراخيت مستلقياً على مقعدي وتكلفت عدم المبالاة والمرح فقلت : أما ترين أن زمن التصريح قد حان ؟

وإذ رأيتها تنظر إلىّ بعيني الاستغراب ذهبت في حديثي قائلاً : لا بد من التوصل يوماً إلى المصارحة بالحقائق ؛ وسألجأ إلى اقتحام هذه الصراحة فأكون قدوة تحررك من كل حذر ؛ وليس خير من التفاهم والاتفاق بين الأصدقاء

وما توقفت عن ذرع الغرفة ذهاباً وإياباً ، كأنها لم تسمع كلامي وقد رأت ولا ريب على أسارير وجهي ما يكذب بياني . فتابعت قائلاً :

— لا تجهلين أننا منذ ستة أشهر نعيش جنباً إلى جنب ، وما كان أبعد حياتنا عن السرور أو ما يشبهه أنت في مقتبل العمر وأنا كذلك ؛ فهل لو شعرت بنفور من هذه المصاحبة تجدين في نفسك ما يدفعك إلى مصارحتي بنفورك ! وما أكتمك أنني لو مللت هذه الصحبة فلن أتردد في الاعتراف بها ، إذ لا يوجد سبب يحول دون هذه الصراحة ، لأنه إذا كان الحب ليس جريمة فلا يمكن أن نرى جرماً في تناقص هذا الحب أو في زواله . وهل يستنكر أن يحتاج من في سننا إلى التغيير ؟

ووقفت واجمة وهي تردد قولي « من في سننا » إليّ توجه هذا الكلام ؟ بأي دور تريد أن تقوم في تمثيلك هذا ؟

وتصاعد الدم إلى رأسي فقبضت على يدها قائلاً :

— اجلسي واسمعي

فقالت : ولماذا أستمع وما أنت الذي يتكلم ؟

وخجلت من محاولتي المراوغة فعدلت عنها وقلت :

— اصغي إليّ واقتربي مني . إنني أتوسل إليك أن تجلسي إلى جنبي ، إذا كنت لا تزالين مصرة على الصمت فاستمعي لي على الأقل

— أنا مصغية فتكلم

— لو جاءني أحد وقال لي أنت جبان وأنا من لم يتجاوز الثانية والعشرين ، وقد أقتحم المبارزة فلا ريب في أنني أغضب لامتهان كرامة أعرفها في نفسي فأسير إلى الميدان مجازفاً بحياتي لأشبك سيفي بسيف نكرة من الناس . وما أقدم على هذا إلا لأثبت أنني لست جباناً ؛ وإذا أنا لم أفعل ألصق المجتمع بي ذل الرعاديد ، إذ لا يورد الجواب على مثل هذه الاهانة إلا كلمة السيف

— لا ريب فيما تقول ، ولكن إلى أين تتجه بهذه المقدمة ؟

— إن النساء لا ينزلن إلى ميدان المبارزة ؛ غير أن لكل إنسان سواء أكان ذكراً أم أنثى ساعة يناقش فيها الحساب مهما انتظمت حياته ، ولا يفلت من هذا المأزق إلا رجل يرضى بالعار وامرأة تقنع بالقطيعة والنسيان . لقد حق على كل مخلوق أن يثبت حيويته فإذا ما هوجم رجل دافع بسيفه ، أما المرأة فما يجديها امتشاق الحسام لصيانة نفسها بل عليها أن توجد لنفسها ما يوافق موقفها من سلاح ، فإذا هاجمها رجل لا تأبه له وردته بالترفع والاحتقار . أما إذا كان المهاجم محبوباً سلاحه الشك والارتياب فلا قبل لها باحتقاره ، وقد وضعت روحها في صدره

— إذا كان المهاجم محبوباً فلا جواب إلا بالصمت

— لقد أخطأت فى بيان قصدك فان الجواب الذى ترين المحبوب الذى يلطخ بارتيابه حياة امرأة إنما يقوم بذرف الدموع وباستشهاد مابذلت من صبر ومن إخلاص فيما مضى . إنك تتركين للزمان أن يظهر براءتها من التهم إذا تركها عاشقها وهو يؤاخذها بجريرة سكوتها

— لعل ذلك صحيح ولكننى أرى الصمت أولى

— إنك تلجأين إلى الصمت ! وكونى واثقة من أننى سأذهب وحدى إذا أنت لم تعدلى عن هذا السكوت

— وأخيراً ... يا أكتاف

— أخيراً ليأت الزمان مبرراً لك بعد ذلك ، إنك تنتظرين عدل الزمان

— أجل وذلك ما أرجو

— ذلك هو أملك ! اسبرى أقصى سريرتك فهذه هى المرة الأخيرة التى يتسنى لك أن تستنطقيها أمامى . لقد قلت إنك تحبيننى فصدقت ، فهل تقصدين الآن تجاه ارتيابى بك أن أهجرك تاركاً للزمان مهمة تبرئتك ؟

— ألك أن تصارحنى بريبتك ؟

— ما كنت أود أن أصرح بها إذ لا فائدة من هذا التصريح ، ولكننى أصبحت ولا مناص لى من مقابلة الصغارة بمثلها . إنك تخونيننى ! إنك تحبين رجلاً غيرى ، ذلك هو سرك ، وذلك هو سرى

— ومن هو هذا الرجل ؟

— هو سميث

ومدت يدها تطبق أناملها على شفتى وهى تعرض بوجهها عنى ، فسكت وأطرق كل منا مستغرقاً فى تفكيره

وسمعتها تقول حزينة مجهدة :

اصغَ إلىّ . لقد جالدت العذاب طويلاً يا أكتاف ولتشهد السماء على أننى أبذل حياتى فداء لك . وما دام أمامى بصيص من الأمل أتحمل كل عذاب للاتجاه إليه ، ولكننى مضطرة إلى تذكيرك بأننى امرأة ولو أغضبك هذا التصريح ؛ وللمرأة حدود تقف قواها عندها . فلا تقاوم الطبيعة البشرية باصرارك على استنطاق فانى لن أجيب على سؤالك ؛ وليس بوسعى الآن إلا أن أحثو لآخر مرة على قدميك متوسلة اليك أن تسرع فى الرحيل

« يتبع » فليكس فارس

مجموعات الرسالة

تباع مجموعات الرسالة مجلدة بالأثمان الآتية

ص

٥٠ السنة الأولى فى مجلد واحد

٧٠ كل من السنوات الثانية والثالثة والرابعة والخامسة فى مجلدين

وذلك عدا أجرة البريد وقدرها خمسة قروش فى الداخل وعشرة قروش في السودان وعشرون قرشاً فى الخارج عن كل مجلد